

حكاية الفتاة الباسلة شمس النهار قراءة في الوظائف والدلالات

■ أ.د. بشرى البستاني

تعد الحكاية الشعبية شكلا من أشكال الفلكلور الذي يحرص على استمرار قيم الماضي وأحاسيسه بصورة حركية و متواصلة مع الحاضر، ولذلك فالفلكلور هو الماضي الذي تحرص المجتمعات الحية على إبقائه رغم الظرفية المطلقة التي تشير الحاضر إذ يتوق الفلكلور دوما إلى تبوأ مكانة أفضل أو الحفاظ على مكانته خوفا من الاضمحلال و الزوال، فالحكاية الشعبية كالفلكلور عنصر مهم في حضارة المجتمع وهي عصارة الخيال الشعبي إذ تمثل من حيث معناها الزمني العام عالما شبه بدائي بالنسبة لحاضر المجتمع^(١). و في تعريفها تكاد تتفق المصادر على انها خبر او مجموعة من الاخبار التي تتصل بتجارب روحية و نفسية عاشها الناس منذ القدم وحرصوا على الاحتفاظ بها ونقلها عبر الاجيال عن طريق الرواية الشفوية، وعلى الراوي لها ان يتمتع بصفتين هما الحفاظ و متعة الرواية في آن واحد، أي هو الشخص الذي يمتلك طاقة فنية تعادل الطاقة الفنية التي يمتلكها كاتب القصة،^(٢) فالحكاية الشعبية تتسم بالحركية التي تقرها من الرقص الفلكلوري حسب جريماس وهذا التشبيه بالغ الطرافة و طافح بالمعنى بالرغم من غرابته الظاهرية، ذلك ان الرقص في المجتمعات البدائية نشاط جماعي وليس مشهدا للفرجة، انه نشاط جوهري تتألف فيه القلوب و تتقارب و تتماسك الاجسام و تنصهر المشاعر و الاحاسيس حول متصور واحد لأنه مثل كل الظواهر الفلكلورية مشهد يحيي الماضي ويمثل التراث في حاضر متغير ينزع الى الحركية

١. مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي وجميل شاكر، ٥٥-٥٦، مشروع النشر المشترك، دار

الشؤون الثقافية، بغداد، والدار التونسية للنشر، ١٩٨٦.

٢. الحكاية الخرافية، نشأتها، مناهج دراستها، فنيها، فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة ابراهيم،

٦، مكتبة غريب، القاهرة د. ت.

والتطور^(٣).

وتعرف المعاجم الأجنبية الحكاية الشعبية بأنها الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخص ومواقع تاريخية... وهي تتطور مع العصور ويتم تداولها شفاهاً كما أنها كثيراً ما تختص بالحوادث التاريخية أو الأبطال الذين يصنعون التاريخ^(٤).

وحلا للإشكالية التي تتعلق بسعة مصطلح (الشعبية) الذي يجعل من الحكاية غائمة الملامح لدخول كل ما هو شعبي، وكل ما هو شعبي يعني كل مجالات الحياة فقد ضبطها بعض الدارسين بالفن وعرفها بأنها (فن الشعب وأسلوبه في التعبير عن حياته وأفكاره كما أنها ذاكرته التي تحفظ وتنقل ما تحفظه إلى الأجيال^(٥) . من هنا نجد ان للحكاية الشعبية أكثر من مهمة ففضلا عن وظيفتها الإمتاعية والجمالية فان لها وظائف معرفية وتاريخية ووطنية كذلك تعمل على التواصل مع روح الأمة. ذلك ان أنواع هذه الحكايات بأسرها والخرافية والأساطير منها ما هي بالتأكيد الا بقايا المعتقدات الشعبية كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية وبقايا قواه وخبراته حينما كان الإنسان يحلم إذ لم يكن يعرف وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى وحينما كان يؤثر فيما حوله لكن بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها الخرافية^(٦).

و اذ كانت قضية إنتاج السلطة واحدة من قضايا الخطاب البديهية سواء كان هذا الخطاب مروياً أو مكتوباً، فان وظيفة السلطة في الحكاية الشعبية كما هي في أي نص أدبي أو فني تتمحور حول هذين الهدفين، الإمتاع والإقناع ولا يخفى أن هذين الهدفين في النص الأدبي يتجاذبان أطراف الخفاء والتجلي مرة ينهض الأول ليختفي الهدف الثاني تحت غلائله وأخرى ينهض الثاني ليكمن الأول في نسيجه

٣. مدخل الى نظرية القصة، ٥٤-٥٥.

٤. أشكال التعبير في الادب الشعبي، د. نبيلة ابراهيم، ١٠٦- ١٠٧ دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٤.

٥. الحكاية الموصلية، دراسة وعرض مع نماذج نصية، عبد الحليم اللاوند، مجلة التراث الشعبي، العدد، ١٠ / ١٩٧٢، ٨٣.

٦. الحكاية الخرافية، ٢٣- ٢٤.

فان من سمات الحكاية الشعبية أكثر الأحيان على ما يبدو في حكايات الموصل العمل على الموازنة بين الهدفين لتوصيل فكرة أو دلالة،

إن الحكاية الشعبية قديمة قدم الإنسان على الأرض وقد قامت في تلك العصور السحيقة مقام الأجهزة المعرفية والاجتماعية والتأملية وحتى الحجاجية في هذا العصور ولذلك تحرص الدول المتحضرة اليوم على جمع حكاياتها ودراستها وتحليلها والعناية بها لأنها تحمل الكثير من سمات الشعوب وخصائص الأمم.

وتقوم الحكاية الشعبية على قصة قصيرة حقيقية أو خيالية فهي تركز على الواقع أكثر الأحيان وتستلم منه إشارات أو ترميزاً لتلك الإشارات وأحداثها، يقوم بروايتها شخص يبتدع حوادثها ثم يتناقلها الآخرون شفاهياً حتى تكتسب صفة النتاج الجمعي من خلال ما يجري عليها أثناء الرواية من إضافة وحذف أو تغيير لبعض مجريات الأحداث بسبب مرونتها التي تكسبها سمة التطور والنمو حسب البيئة الاجتماعية التي تروى فيها^(٧).

أما خصائصها فأهمها البساطة والأفقية في بث الوظائف كما ذكر بروب و كون شخصياتها من الناس وقد يدخلها السحرو الخرافة وتعتمد السرد بكل مكوناته وعناصره ولذلك فهي تصدر عن رؤيا سردية خاصة براوئها، وهذه الرؤيا تختلف من سارد إلى سارد آخر لكن مجموع هذه الرؤى في الحكايات يشكل الجوهر العام لسمات الأمم وخصائصها وأفكارها وتأملاتها.

وإذا كانت الشخصية هي الفاعل الذي يؤدي فعل الوظيفة فلا بد من الوقوف عند أبسط تعريفاتها كونها التنظيم الدينامي للصفات الجسدية والعقلية والخلقية والاجتماعية للفرد كما تظهر للأخرين خلال عملية الأخذ والعطاء في الحياة الاجتماعية وتضم الشخصية الدوافع الموروثة والمكتسبة والعادات والاهتمامات والعقد والمشاعر والمثل والآراء والمعتقدات^(٨).

ولما كانت الحكاية هي حياة مصغرة وعالم مقفل قائم بذاته يعتمد على نمو

٧. الحكاية الشعبية، د. عبد الحميد يونس، ١١، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
٨. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، د. عبد المنعم الحفني، ٥٩٦ مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٤،

حدث ما يتوفر على بداية وذروة ونهاية فان هذه الذروة لا يصنعها إلا دراما من نوع ما، يقوم الصراع على إذكائها وهذا الصراع لا بد أن يتطلب في الأقل نوعين أو أكثر من الشخصيات تختلف دوافعهم ورغباتهم والأهداف التي يسعون إليها مما يحدث صداما ينتهي بتغلب أحد الطرفين وغالبا ما ينتصر عنصر الخير على الشر في النهاية.

أما الوظيفة كما يعرفها بروب فهي عمل الفاعل لا الشخصية معرفا من حيث معناه في سير الحكاية أي إن الحدث يعد وظيفة ما دام رهين سلسلة من الأحداث السابقة التي تهره، ومن الأحداث اللاحقة التي تنتج عنه... وفي الحكاية المستوفية لشروطها تكون الوظائف مترابطة تستقطبها غاية واحدة هي إصلاح الافتقار الحاصل في الوضع الأصلي الذي تستدرجه بنية التشكيلات الحكائية في الاستهلال إذ يكتسب كل حدث سواء كان صيغة فعلية أو كلامية قيمة ووظائفية لأنه يمثل حلقة في سلسلة الأحداث^(٩).

ان سلطة الخطاب في الحكاية تعمل على تكريس دلالات تبثها من خلال النظام التشكيلي الذي يكرس إرادته من خلال مراسلاته المتمثلة بالعنوان والاستهلال و المتن، ويفصح عنوان حكاية الفتاة الباسلة شمس النهار عن دوران الحدث عن بطلة تمتلك سلطة الفعل، وتتمكن بفعلها من جر السامع او القارئ للإصغاء و متابعة ما تقوم به او ما يتعلق بها من سلسلة أحداث يرويها السارد العليم الذي يعرض لنا التشكيلات السردية ضمن المكونات الآتية:

عرض الوضع العام للحدث متمثلا بأمر يبحث عن زوجة من طراز خاص يجفوها ليلة الزفاف ويمتحنها في اليوم الثاني عن حالها وحال زوجها فتفشل في الامتحان اذ انها تفشي سرليلتها ولا تجيب الجواب الذي يرضه فينصل عنها حتى قادته دروب الصيد الى غابة منعزلة وهو عطشان جائع اذ تستقبله فتاة في خيمة غاب اهلها عنها وتحسن ضيافته بكرم وحرصانة وهي لا تعرف انه سليل ملوك فيرسل من يخطبها في اليوم الثاني ويرضى اهلها بتزويجها فتزف اليه ويفعل معها ما فعل مع الاخريات قبلها من جفاء واهمال وتأتيها ذات السائلة في اليوم الثاني

٩. مدخل الى نظرية القصة، ٢١- ٢٢.

لتسألها عن حال زوجها معها ليلة عرسها، فتجيب انها وزوجها بأفضل حال، فيطمئن الرجل الى ذكاء عروسه و فطنتها و قوة ارادتها و صبرها و يحتفظ بها زوجة له لكن الحدث لا يمتهي لان جار الامير الذي اتسم بالنزق و اللهو وقع في حب العروس وراح يرسل اليها من تجرها بالخديعة اليه، و فعلا نجحت الماكرة الشريرة بالحيلة في جر الزوجة الى بيت ادعت انه بيتها كذبا لتجد هناك الرجل الذي حاول اغواءها و الايقاع بها لكنها استطاعت بذكائها مرة أخرى أن تتخلص من هذا المأزق لكن بقتل الرجل و موته و اخفت الامر عن الجميع، كما اخفى اهله الخبر خوف الفضيحة أمام قصر الملك، لكنهم أصروا على الثأر لولدهم و وشو بالزور عليها عند زوجها و حلت القطيعة التي استمرت بين الزوجين الى ان علم الزوج الحقيقة و راح يبحث عن الزوجة الذكية و المخلصة التي رحلت مع اهله في مكان بعيد حتى وجدها. من هذا العرض الموجز للحكاية يتبين ان الشخصيات انقسمت على حقلين دلاليين ايجابي و سلبي و ما يدور في فلكهما، فالإيجابي يتمثل بالأمير و الفتاة، و السلبي يتمثل بالشباب الفاسد المغرور و بالمرأة الشريرة التي حاولت هدم بيت سعيد و الايقاع بالزوجة، لقد ركزت البنيوية على دراسة الشكل في الحكاية الشعبية و توصيف الانظمة العامة المعتمدة في عملية التوصيل و دراسة السياقات الخاصة باللغة المؤدية الى الرسالة الفعلية، كما درست الوظائف المنوطة بالشخصيات، و تتجلى الوظائف في الحكاية كما هوأت:

١. حالة الافتقار التي لازمت الأمير و هو يبحث عن زوجة تكون جديدة به ضمن المواصفات التي وضعها لشريكة حياته.
٢. الانفصال الذي يتسبب من غياب الصفات التي كان الامير يبغيها في الزوجة التي يريد، و الذي يؤدي الى الفشل و الانفصال دوما.
٣. حلول التوازن بعثور البطل او الشخصية المركزية/ الامير على المرأة المطلوبة.
٤. دخول شخصيات شريرة تخترق الحكاية و تعمل على تبديد حالة الانسجام بين الزوجين، و نجد ذلك متمثلا بشخصية الماكرة التي تتقمص دور الصديقة و الشاب الترق المفسد الذي يحاول جر الزوجة النبيلة من زوجها و بيتها لاسقاطها في الخطيئة.

٥. وظيفة البحث و الاستطلاع عن احوال الضحية و طبيعة ظروفها
للتمكن من جرّها الى الشباك
٦. نجاح الزوجة في الخلاص من المكيدة التي دبّرت لها بوظيفة اقضاء
الشرير موتاً.
٧. وظيفة الوشاية عند الزوج من قبل اشرارهم اهل القتل.
٨. وظيفة اقضاء الزوجة - الضحية من قبل البطل / الزوج وذلك
برحيلها الى اهلها.
٩. تحويل العجوز الماكرة من عامل معوق وشرير الى عامل مساعد لكن
بالتهديد والاكراه من اجل معرفة الحقيقة التي تمتلك هي خيوطها
لأنها هي التي حاكت مكيدة الشرفها.
١٠. وظيفة البحث عن الزوجة بعد ان تبينت براءتها من خلال التحريات
التي قام بها الزوج.
١١. وظيفة احلال التوازن بعودة الزوجة الى دأها وزوجها و انتصار عوامل
الإيجاب و الخير على عوامل الشر في الحكاية.

ان البنية في هذه الحكاية تفصح عن عناصر الحكمة و الذكاء و الصبر في شخصية المرأة التي لعبت دور البطولة جنباً الى جنب مع الرجل فمنذ العنوان نجد الوحدة الأسلوبية الصغرى تعلن عن وصفين مهمين يصفان شخصية المرأة التي ستدور الأحداث حولها وهما: الفتاة الباسلة و شمس النهار فالوصف الأول يساوي فتوة و قوة مع جرأة و شجاعة توحى بالقدرة على تجاوز الصعاب و شمس النهار يعني نورا شاملاً مقتدراً على الكشف، و الكشف من اهم عوامل الوصول الى الحقيقة، و النهار تأكيد للفضاء الذي تمارس فيه الشمس فعلها كشفاً و بحثاً و مقاومة لقوى الشر و الفساد و دحراً للظلمة.

ان المجتمع الموصلّي كأبي مجتمع اخر في الوطن العربي مجتمع تسوده قيم ذكورية مهيمنة تعلي من شأن الرجل أياً كان، لكن هذا المجتمع بأصالته التاريخية ما يفتأ يفصح بين أونة و اخرى عن نظرة منصفة الى المرأة التي تمتلك من المواهب و القدرات ما يحدث الوعي الجمعي على احترامها و لإعلاء من شأنها و الإشادة بحمتها و بما تمتلك من سمات ايجابية اصيلة، كما تؤكد هذه الحكاية ان المرأة

تمتلك وعيا فطريا وقدرة على اختزان المعلومة التي تلتقطها من المحيط لإجراء حوارية معها وقت الحاجة وان المرأة الذكية مثقفة بالمعنى اللغوي للمفردة

١. تكريس الرجل صانعا للقرار و ممتلكا لسلطة الاختيار فهو الطالب للمرأة هو المفارق لها، هو الذي يعمل على بناء الاسرة اذا شاء وهو الذي يلغىها ويهدمها. بإرادته وحده تسيير الامور، وهو الارادة فردية متسلطة لم تعمد الى اية حوارية مع المرأة على طول الحكاية التي ظهرت فيها شخصيات الرجال ما بين ايجابية وسلبية في مثالين اثنين من الامراء: بطل الحكاية الايجابي والامير الثاني السلبي، اما المرأة فقد كانت شخصية الام مغيبة، ام الفتاة وام الرجل حيث لم تذكر الا عبر جمل قصيرة او جملة واحدة لكل منهما وكانت شخصية المرأة الشريرة بسمات الكيد والمكر والقدرة على الاختراق وتحقيق فعل الشر الذي طلب منها.

٢. تكريس حضور المرأة في الفعل وهذا الفعل لابد ان ينحو احد منحيين، ايجابي، أو سلبي والذي يقرر نوعية الإيجاب والسلب انما هو رؤية المسرود له او المتلقي ولذلك فان فعل النساء الاوائل في الحكاية واللواتي وقع عليهن الطلاق يمكن ان يفسر على انه فعل ايجابي لدى من يراه مطالبة بحق مشروع ومتعارف عليه شرعا وعرفا، وهو ضرورة حدوث أي نوع من أنواع التواصل بين العروسين ليلة الزفاف، لكن فعل الجفاء الذي حدث كان القصد منه اختبار صبر المرأة ومدى قدرتها على الكتمان واحترام خصوصية العلاقة الزوجية من يومها الأول، وبناءا على ذلك فقد فسر الزوج شكوى النساء على انه فعل سلبي وبسببه وقع الطلاق، اما الفتاة الباسلة فقد نالت النجاح والاحترام من خلال فعل الكتمان والرصانة والقدرة على التماسك والتكيف مع متطلبات حياتها الجديدة والمجال الذي جاءت اليه مما يفصح عن توازن داخلي يعمل على الحد من التوتر.

٣. وعليه فان الرؤية السردية تختلف من شخصية إلى أخرى وتظل رؤية السارد الرئيس في الحكاية هي الرؤية المهيمنة على العمل لأنها هي الموجه الكلي للأحداث والمسيطر على حركتها.

المراجع

١. أشكال التعبير في الادب الشعبي، د. نبيلة ابراهيم، ١٠٦- ١٠٧ دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٤.
٢. الحكاية الخرافية، نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها، فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، ٦، مكتبة غريب، القاهرة د. ت.
٣. الحكاية الشعبية، د. عبد الحميد يونس، ١١، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
٤. الحكاية الموصلية، دراسة وعرض مع نماذج نصية، عبد الحلیم اللاوند، مجلة التراث الشعبي، العدد، ١٠ / ١٩٧٢، ٨٣.
٥. مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي وجميل شاكر، ٥٥- ٥٦، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية، بغداد، والدار التونسية للنشر، ١٩٨٦.
٦. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، د. عبد المنعم الحفني، ٥٩٦ مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٤.